

الفصل الثاني عشر

مشركون ويهود يضحك النبي من حالهم

١- النبي ﷺ يصدق حَبْرًا .

٢- انكشفت عورته فضحك الرسول ﷺ منه .

مشركون ويهود يضحك النبي من حالهم

لم تكن علاقة النبي ﷺ بغير المسلمين في مجتمعه علاقة مقطوعة مبتوتة ، إذ لا يعقل أن ينقطع صاحب دين ورسالة عن الناس من حوله ، وهذه العلاقة ليست علاقة مفتوحة بإطلاق ، وإنما لها ما لها من الضوابط والشروط ، وقد عبرت الشرعية عن هذه العلاقة بـ (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وعلى هذا قامت العلاقة على أساس التعايش والتقارب ؛ لا التعادي والتنافر ، حتى يعرض صاحب الدعوة ما عنده على هذا الغير مهما كان .

ولهذا لم يكن النبي ﷺ يمنعه مانع أن يضحك مع المشركين أو اليهود في موقف ما ؛ إن استدعت الظروف ذلك ، أو رأى النبي ﷺ ما يضحكه ، ومن هذا :

١- النبي ﷺ يصدق خبراً .

٢- انكشفت عورته فضحك الرسول ﷺ منه .

النبي ﷺ يصدق خبراً

عن عبد الله ﷺ قال : جاء حبر من الأخبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ؛ تصديقاً لقول الحبر . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر: ٦٧).^(١)

لقد بعث النبي ﷺ وجزيرة العرب بها ما بها من الأخبار والرهبان ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ؛ وقد كان عندهم علم مما تبقى من كتب الأنبياء وصحف

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٣) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٦) .

المرسلين ، والحوار الذي دار بين النبي ﷺ وهذا الراهب يوضح أن هؤلاء القوم كانوا يحتفظون ببعض الحق ، يظهرونه حيناً ويخفونه في أكثر الأحيان ، وقد روى بعض الصحابة والتابعين عن هؤلاء الأخبار والرهبان قصصاً من قصصهم ، وقد قسم الشيخ الذهبي أقسام الإسرائيليات تقسيماً رائعاً ، يجدر بنا أن ننقله باختصار ، قال رحمه الله :

تنقسم الإسرائيليات :

أولاً : باعتبار صحتها إلى :

- ١- صحيح : مثل وصف النبي ﷺ في التوراة ، كما في حديث عبد الله بن عمر : « والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن » ^(١).
- ٢- ضعيف : مثل الأثر المذكور في تفسير سورة (ق) وهو أن المقصود بـ(ق) جبل.
- ٣- ومنه كذلك الموضوع : وما أكثره .

ثانياً : باعتبار موافقتها لشريعتنا ومخالفتها إلى :

- ١- موافق لما في شريعتنا : مثل ما في البخاري « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر » ^(٢).
- ٢- مخالف لما في شريعتنا : مثل ما قيل من أن هارون عليه السلام هو صانع العجل ، وأن الشيطان كان يأتي نساء سليمان في صورة سليمان ويجامعن .
- ٣- ما سكت عنه الشرع وليس فيه ما يؤيده ولا يفنده : كما في قصة البقرة : « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (البقرة: ٦٧).

ثالثاً : باعتبار موضوع الخبر إلى :

- ١- ما يتعلق بالعقائد : مثل الحديث الذي معنا .

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١٢٥) .

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٠) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٢) .

٢- ما يتعلق بالأحكام : مثل ما ورد في حكم الرجم ، وقد أنكروه ، وهو في توراتهم فأنزل الله قوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٣)

٣- ما يتعلق بالمواعظ أو الحوادث : كما في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ (المؤمنون: ٢٧).^(١)

وقد اختلف العلماء في ضحك النبي في هذا الحديث هل كان إنكاراً أم تصديقاً؟ قال الخطابي : لم يقع ذكر الإصبع في القرآن ولا في حديث مقطوع به ؛ وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف أطلقه الشارع فلا يكيف ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي . . .

وأما ضحكه ﷺ من قول الحبر : فيحتمل الرضى والإنكار ، وأما قول الراوي تصديقاً له فظن منه وحسبان ، وقد جاء الحديث من عدة طرق ليس فيها هذه الزيادة ؛ وعلى تقدير صحتها فقد يستدل بحمرة الوجه على الخجل ، وبصفرة على الوجل ، ويكون الأمر بخلاف ذلك ، فقد تكون الحمرة لأمر حدث في البدن كثوران الدم ، والصفرة لثوران خلط من مرار وغيره ، وعلى تقدير أن يكون ذلك محفوظاً فهو محمول على تأويل قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر: ٦٧). أي قدرته على طيها ، وسهولة الأمر عليه في جمعها ، بمنزلة من جمع شيئاً في كفه واستقل بحمله أن يجمع كفه عليه بل يقله ببعض أصابعه ، وقد جرى في أمثالهم : فلان يقل كذا بإصبعه ، ويعمله بخنصره .

وقال القرطبي في المفهم : وضحك النبي ﷺ إنما هو للتعجب من جهل اليهودي ، ولهذا قرأ عند ذلك ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر: ٦٧). أي ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه . فهذه الرواية هي الصحيحة المحققة ، وأما من زاد (وتصديقاً له) فليست بشيء فإنها من قول

(١) انظر : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، د : محمد حسين الذهبي ، ط مكتبة وهبة الرابعة ١٩٩٠ م ، ص ٣٥ وما بعدها باختصار .

الراوي ؛ وهي باطلة لأن النبي ﷺ لا يصدق المحال ؛ وهذه الأوصاف في حق الله محال .

قال الحافظ ابن حجر : وقد تعقب بعضهم إنكار ورود الأصابع لوروده في عدة أحاديث كالحديث الذي أخرجه مسلم أن : « قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن »^(١) ولا يرد عليه لأنه إنما نفى القطع^(٢).

قال النووي : وظاهر السياق أنه ضحك تصديقاً له ؛ بدليل قراءته الآية التي تدل على صدق ما قال الحبر ، والأولى في هذه الأشياء الكف عن التأويل مع اعتقاد التنزيه^(٣).

وقد اشتهد إنكار ابن خزيمة على من ادعى أن الضحك المذكور كان على سبيل الإنكار ، فقال بعد أن أورد هذا الحديث في كتاب التوحيد من صحيحه بطريقه : قد أجل الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته فيجعل بدل الإنكار والغضب على الواصف ضحكاً ، بل لا يوصف النبي ﷺ بهذا الوصف من يؤمن بنبوته^(٤).

ويظهر لي والله أعلم : أن ضحك النبي ﷺ إنما كان تصديقاً كما ذهب إلى ذلك النووي وابن خزيمة وابن التين وغيرهم خلافاً للخطابي ومن وافقه ؛ رحمهم الله جميعاً .

بعض ما يستفاد من الحديث :

- ١- تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به سبحانه .
- ٢- عظيم قدرة الله جلا وعلا .
- ٣- سرور النبي ﷺ بما يؤكد صدق نبوته ، وإن كان من يهودي .

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤) .

(٢) انظر : فتح الباري ، ٣٩٨ / ١٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ٥٥١ / ٨ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ٣٩٩ / ١٣ .

انكشفت عورته فضحك الرسول ﷺ منه

عن سعد بن أبي وقاص قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين فقال النبي ﷺ : « سعد ارم فداك أبي وأمي ، قال : فنزعت بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه ، فوقع وانكشفت عورته ، فضحك النبي ﷺ حتى نظرت إلى نواجزه »^(١) .

هذا سعد بن أبي وقاص رام ماهر ، دعا له النبي ﷺ بتسديد رميته وإجابة دعوته فقال : « اللهم سد رميته وأجب دعوته »^(٢) ؛ ولم يكن ﷺ تخب له رمية ، ولا ترد له دعوة .

وقد ذكر ابن حجر سبب هذه الواقعة : أن سعداً انتقم لأم أيمن فقال : عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين ، فنزعت له بسهم ، فأصابت جبهته ، فوقع وانكشفت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ .

وسماه الواقدي في روايته أنه : حبان بن العرق . وزاد أنه رمى بسهم فأصاب ذيل أم أيمن ، وكانت جاءت تسقي الجرحى فضحك منها ، فدفع رسول الله ﷺ لسعد سهماً فوق السهم في نحر حبان فوقع مستلقياً وبدأت عورته فضحك رسول الله ﷺ وقال : « استقاد لها سعد »^(٣) .

وهنا تجدر الإشارة إلى مشاركة المرأة في الجهاد ، فلم تكن المرأة بمعزل عن ساحة الجهاد ، إنما كانت جنباً إلى جنب بجوار الرجل ، ولا يستطيع أحد أن ينكر دور عائشة ، وأم سليم ، والربيع بنت معوذ ، وأم عطية ، وغيرهن كثير - كما ذكرنا - ولكن ينبغي التأكيد أن للمرأة مكانها اللائق في ساحة الجهاد .

وقد كان ضحك النبي ﷺ لإجهاز سعد على هذا المشرك وانتقامه منه .

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٢) .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه (٢٨/٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) انظر : الإصابة ، ٦٧/٣ .

وليس هذا مناف لرحمة النبي ﷺ إنما طلب من سعد الإجهاز على هذا الرجل وضحك من وقوعه ؛ لأن الرجل أجهد المسلمين تعباً ، وأحرق قلوبهم كمداً ، بقتله عدداً منهم .

ويعد جمع تفدية الأب و الأم للصحابي مفخرة من مفاخره ، ومنقبة من مناقبه .

ومنه قول سعد بن أبي وقاص : جمع لي النبي ﷺ أبويه يوم أحد . أي في التفدية وهي قوله ﷺ : « فذاك أبي وأمي » .

وكان علي بن أبي طالب يقول : ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص ، قال له يوم أحد : « ارم فذاك أبي وأمي » ، وقال له : « ارم أيها الغلام الحزور »^(١) .

ولكنه ﷺ جمع ذلك أيضاً للزبير بن العوام ، يقول الزبير : فلما رجعت جمع لي النبي ﷺ أبويه فقال : « فذاك أبي وأمي »^(٢) .

وقد دفع الحافظ في الفتح هذا التعارض فقال : ويجمع بينهما بأن علياً عليه السلام لم يطلع على ذلك ، أو مراده بذلك يوم أحد والله أعلم^(٣) .

وفي الحديث دلالة على جواز قول الرجل فذاك أبي وأمي ، وقد بوب لذلك الحافظ ابن حجر في الفتح قال : (باب قول الرجل فذاك أبي وأمي) .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وقد استوعب الأخبار الدالة على الجواز أبو بكر بن أبي عاصم في أول كتابه آداب الحكماء ، وجزم بجواز ذلك فقال : للمرء أن يقول ذلك لسلطانه ولكبيره ولنوي العلم ، ولمن أحب ، ما من محظور عليه في ذلك ، بل يثاب عليه إذا قصد توقيره واستعطافه ، ولو كان ذلك محظوراً لنهى النبي ﷺ قائل ذلك ، ولأعلمه أن ذلك غير جائز أن يقال لأحد غيره .

(١) رواه أبو داود . وذكره الألباني في ضعيف الترمذي (٥٣٥) ولكن جملة ارم فذاك أبي وأمي عند البخاري في المغازي (٤٠٥٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١١) .

(٢) رواه البخاري في فضائل أصحاب الرسول (٣٧٢٠) .

(٣) انظر : فتح الباري ، ٨٤/٧ .

وقال أبو بكر للنبي ﷺ : فديناك بأبائنا وأمهاتنا ، هو طرف من حديث لأبي سعيد رفعه أن عبداً خيرته الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده فقال أبو بكر : فديناك بأبائنا وأمهاتنا .

ومنه قول أبي طلحة : يا نبي الله جعلني الله فداك هل أصابك شيء ، وقد ترجم أبو داود نحو هذه الترجمة وساق حديث أبي ذر قلت للنبي ﷺ : لبيك وسعديك جعلني الله فداك ... الحديث ، وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد في الترجمة . قال الطبراني : في هذه الأحاديث دليل على جواز قول ذلك ^(١) .

بعض ما يستفاد من الحديث :

- ١- مشروعية حزن المسلم وتألمه لما يصيب إخوانه .
- ٢- مشروعية قول المسلم لغيره : (فداك أبي وأمي) سواء لسلطانه أو لكبيره أو لذوي العلم ، أولمن أحب .
- ٣- مشروعية سرور المسلم بما يتألم منه عدوه .

(١) انظر : فتح الباري ، ٥٦٩/١٠ ، وعون المعبود ، ٩٣/١٤ باختصار .